البيروني ومنهجه في وصف الهند

الدكتور محمد إرشاد الحق *

توطئة

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني هو من أشـــهر عبـــاقرة علمية على مر القرون ومن أعظم من أنجبتهم الحضارة الإسلامية. كان نجماً زاهراً وزاخراً في سماء الإنسانية، نبغ في ميادين مختلفة من فروع العلم والمعرفة و له أبحاث في علـــم الفلـــك والفيزيـــاء والتعدين والصيدلة والجغرافيا، والجيولوجيا وغيرها. ســـافر إلـــى الهند وأصبح من أهم الملهمين للعلوم الهندية الإسلامية وألف هناك كتابه "تاريخ الهند"، و قد أعطوه لقـــب "مؤسّـــس علـــم الهنـــديات" (**Founder of Indology**) وبرع البيروني في التاريخ، فكان كـــل من يقرأ مؤلفاته في التاريخ يشهد له بالبراعة وخاصة المستشرقون الأوروبيون ينبهرون من دقة وصفه وسعة ثقافته وانفتاحـــه علـــى الأمم التي زارها. كان طبيباً وفلكياً و فيلسوفاً ورياضياً و شاعراً و فيزيائياً وكيميائياً و جغرافياً ومؤرخاً. اشتهر فى كثير من العلـــوم وكانت له فيها ابتكارات و بحوث مستفيضة. وقد حاولت في هـــذا المقال استبيان مشاهداته في الهند وما كتب عن حضارتها و ثقافتها و تقاليدها خاصة في ضوء أهم مؤلفاته وأشهرها، الا وهي "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومرذولة" وهو كتاب جامع فـــى

* الزميل ما بعد الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة كشمير

تاريخ الهند الحضاري والثقافي و معتمد على تجربته الشخصية. و كذلك كتابه الآخر " الآثار الباقية عن القرون الخالية" يضم وصف كامل لمختلف التوقيتات والأعياد عند أمم كثيرة و منها الهند. وساحاول شفافية العرض والتحليل بشكل مبسط حول موقفه في وصف الهند.

الكلمات المفتاحية: الخوارزمي، بيرون، السلطان قابوس، المنهج العقلي التفائلي، أنبرشي، جيتا، فيدا، مقارنة الأديان، الإيرانشهري

لمحة عن حياته:

هو هو أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي(١) البيروني(٢) الملقب بالأستاذ(٣) و"بيرون" فسّرت بمعنيين،الأول: انها كلمة فارسية تعني "خارج"، وقد أطلقت هذه النسبة على البيروني لأنه "أقام فترة طويلة خارج خوارزم" كما يقول السمعاني (٤) و وردت "بيرون" بالمعنى الثاني عند ظهير الدين البيهقي (ت٥٦٥هـ) أول من ترجم للبيروني، والذي أشار إلى أنّه ولد ونشأ في بيرون، واصفا إياها بأنها بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب" ٤دون تحديد موقعها، ووافقه ابن أبي أصيبعة(ت ٦٦٨هـ)، لكنّه حدّد موقعها، بالقول إن البيروني ولد في بيرون التي تقع في السند. ولد في الثالث من ذي الحجة سنة ٣٦٢هـ الموافق سنة ٩٧٣م في ضاحية من ضواحي مدينة كات عاصمة خوارزم، والتي تقع حالياً في جمهورية أوزبكستان. عمل أبوه في بلاط بنوعراق. تعهده بالرعاية عالمها الفلكي والرياضي منصور بن علي بن عراق المتوفى سنة ٤٢٥هـ،

نشبت بعض الإضطرابات في خـــوارزم حتـــى اضـــطرّ البيروني إلى المغادرة إلى مدينة الري وكانت تسيطر عليها الدولـــة البويهية، فأقام بها حوالي سنتين.(٥) وفي أثناء الإقامة بهـــا التقـــى بالعالم الفلكي الخوجندي المتوفى سنة ٣٩٠ هـــ، حيث أجرى معـــه بعض البحوث. ثم لم يلبث أن شدّ الرحـــال إلـــى جرجـــان ســـنة ٣٨٨هـــ والتحق ببلاط السلطان قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي.(٦) كان البيروني محباً للعلم متقناً للغة العربية والفارســـية. التقى ابن سينا وناظرَه واتصل بالطبيب الفلكي المشهور أبي ســـهل بن يحيى المسيحي. وأنجز أبو الريحان أوّل مؤلفاته الكبرى "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، وهو كتاب في التاريخ العـــام يتنـــاول التواريخ والتقاويم التي كان يستخدمها العـــرب واليهـــود والـــروم والهنود، وفيه جداول تفصيلية للأشهر الفارسية والعربية والهنديـــة، وبين فيه كيفية استخراج التواريخ من بعضها.

عاد البيروني إلى وطنه بعد طول غياب والتحق بمجلـــس العلوم الذي أقامه أمير خوارزم مأمون بن مأمون، وكان يزامله في هذا المجمع ابن سينا والمؤرخ الفيلسوف ابـــن مســـكويه. اســـتولى السلطان محمود الغـــزنوي على خوارزم سنة ٤٠٧هـــ /١٠١٦م وضمها إلى ملكه، فانتقل البيروني معه إلى غزنة (كـــابول) حيـــث يعيش البيروني فيها مشتغلاً بالفلك وغيره مـــن العلـــوم، ورافـــق السلطان في فتوحاته الظافرة في بلاد الهند. وقد هيأ لـــه ذلـــك أن يحيط بعلوم الهند فيعكف على دراسة لغتهـــا والاخـــتلاط بعلمائهـــا ويقف على ما عندهم من كتب في العلوم والرياضـــيات، ويـــدرس

جغرافية الهند إضافة إلى عادات أهلها وتقاليدهم ومعتقداتهم حتي سجّل ذلك في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ". بعد تولي السلطان مسعود الغزنوي الحكم خلفاً لأبيه محمود سنة ٤٢٤هـ قرب إليه البيروني وأحاطه بما يستحق من مكانة وتقدير، حتى أنه لما كتب موسوعته النفسية في علم الفلك أطلق عليها القانون المسعودي وأهداها إلى السلطان مسعود الذي أحسن مكافأته. ظل البيروني بعد رجوعه من الهند مقيما في غزنة منقطعاً إلى البحث والدرس حتى لبّي داعي ربّه من عمره الثمانين سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م.

ألف البيروني في الفلك والرياضيات ٩٥ كتاباً من مجموع مؤلفاته البالغة ١٤٦ كتاباً، تحوي هذه الكتب ٦٥% مما تم إكتشافه في علم الفلك والقواعد الأساسية التي يعتمد عليها في العصر الحديث، وقد كتب الكثير من التعليقات على علم الفلك الهندي في كتابه "تاريخ الهند"، حيث تحدث عن دوران الأرض حول محورها في رسالة لعمل الفلك لم تعد موجودة وتحدث أيضاً عن هذا الموضوع في كتابه "مفتاح علم الفلك" و هو كتاب شامل يعالع الامور باستيعاب كامل.

منهجه في الوصف في ضوء "كتاب الهند":

قام البيروني فى الهند فى عهد الغزنيين و قام بدراسة عملية دقيقة لأهل الهند وثقافتهم و حضارتهم وقام بتحليل نقدي شامل لكل ما شاهد و اكتشف فيها من خلال دراسته الذاتية. نلاحظه في مؤلفاته المتعلقة بالهند يهتم بالجانب الديني والعقيدي

أكثر من جوانب حضارة الهند الأخرى. و ربما نحس من خلال قراءة تقريراته و تسجيلاته حول الهند أنه محقق متفائل عادل غير متحيز في آراءه، يفسّر عقائد الهندوس بشفافية و أسلوب فيلسوفي أكثر إيجابياً و كتابه المعروف "تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة" خير دليل على ذلك. وقد اشتهر هذا الكتاب اختصارًا بعنوان "كتاب الهند"، وقد قام البيروني بتأليفه سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م بطلب من "أبي سهل عبد المنعم بن علي بن نوح التقليسي"(٧)

ولقد تمسك البيروني بالمنهج العقلي التفائلي فيما سيسوقه في وصف أحوال الهند وهو المنهج الذي التزم به في كل أعماله. وتبدو الموضوعية في مقدمة الكتاب إذ يبدأ بالحديث عن فضيلة الصدق في الخبر فيقول " إنما صدق القائل " ليس الخبر كالعيان لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان، والنظر لقصورها على الوجود الذي لا يتعدى آنات الزمان وتناول الخبر إياها وما قبلها من ماضي الأزمنة وبعدها من مقتبلها حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معا.

يقول البيروني أن سبب تأليفه للكتاب هو الاستجابة لما طلبه إليه أبو العباسي الإيرانشهري من وضع كتاب يصحح فيه أخطأه الناتجة عن نقله لروايات العوام.. يقول " وكان وقع المثال في فحوى الكلام على أديان الهند ومذاهبهم فأشرت إلى أن أكثرها هو مسطور في الكتب هو منحول وبعضها عن بعض منقول

وملقوط مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذب، فما وجدت من أصحاب كتب المقالات أحد أقصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مداهنة سوى أبي العباس الإيرانشهري إن لم يكن من جميع الأديان في شئ بل منفردا بمخترع له يدعو إليه ولقد أحسن في حكايته ما عليه اليهود والنصارى وما يتضمنه التوراة والإنجيل وبالغ في ذكر المانوية وما في كتبهم من خبر الملل المنقرضة.

يحدد البيروني منهجه في الكتاب فيقول : إن كتابه ليس كتاب جدل أو حِجاج وإنما هو كتاب حكاية أورد فيه كلام الهند على وجهه مضيفا ما لليونانيين من مثله لتعريف المقاربة بينهم فإن فلاسفتهم وان تحروا التحقيق فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم عن رموز نحلتهم ومواصفات ناموسهم.

ثم يشرع البيروني بعد ذلك في تقرير أحوال الهند متبعا ذلك المنهج الموضوعي فيبدأ أولا في بيان أسباب جهل الأمة العربية الإسلامية بأمور هذه البلاد وفي مقدمتها سببان رئيسان :

أولهما التباين اللغوي في الأصوات والدلالات،

والثاني التباين الديني بين الملة الإسلامية وديانات الشعوب الشرقية المتاخمة لدار الإسلام في فارس والهند ثم أتت فتوح المسلمين لهذه البلاد ابتداء بمحمد بن القاسم الثقفي وما تلا ذلك من حملات المسلمين في عهود الدولة السامانية والغزنوية فزادت من القطيعة بين المسلمين والهنود.

ثم يعقد البيروني بعد ذلك مقارنة مجملة بين الفكر الهندي والفكر اليوناني منتهيا إلى تأكيد تفوق اليونانيين لأن الفكر الهندي

يخلط النظر العقلي بالخرافات. ثم يشرح عقيدة الهنود وتصورهم للذات الإلهية ويفرق بين اعتقاد الخاصة والعامة فالخاصة يؤمنون بالله الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء القادر الحكيم المدبر الفرد من ملكوته وهو تصور يتفق مع العقيدة الإسلامية ويستشهد في وصف ذلك التصور بما ورد في كتابي جيتا و فيدا من كتبهم الدينية أما العامة فهم يدينون بالتجسيم.

ثم يقارن البيروني بين عقيدة الهنود وعقائد اليونانيين المؤمنين بتعدد الآلهة ثم يستطرد بمقارنة أخرى مع ما يدين به العبرانيون مستشهدا بما ورد في توراتهم وبعقيدة ماني (Mani ٢١٦م- ٢٧٦م) المنتشرة بين الفرس وهو في مقارنة يستخدم مصطلحات الهنود بألفاظها مع ترجمتها إلى العربية كما يفعل مثل ذلك فيما يتعلق بآراء اليونان.

ثم ينتقل إلى الحديث عن الأفعال الإرادية الصادرة عن الحيوان بعد وجود الحياة فيه وإلى حال الأرواح التي يرون أنها لا تفنى ويقوده ذلك إلى شرح عقيدة الهنود في التناسخ فيقول: التناسخ علم النحلة الهندية فمن لم ينتحله لم يك منها فهو مثل الإخلاص في الإسلام والإسبات (أي تقديس يوم السبت) في اليهودية والتثليث في المسيحية.

ومنبع هذه العقيدة هو أن الأرواح لا تموت وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان وقد نقل هذه العقيدة ماني(Mani ٢١٦م- ٢٧٦م) إلى أرض فارس حينما نفي عن بلاده فدخل الهند كما أخذ بها بعض فلاسفة اليونان. كما تحتل الفلسفة الخَلقية للهنود

مساحة واسعة من كتاب البيروني وهي مرتبطة بالمعرفة وفي عقيدتهم أن الإخلاص بالعلم لا يكون إلا بالانتزاع عن الشر والتغلب على قوتي الشهوة والغضب والالتزام بالسيرة الفاضلة التي يفرضها الدين واصوله راجعة إلى جوامع عديدة: ألا يقتل ولا يكذب ولا يسرق ولا يزني وإن يلتزم بالطهارة ويديم الصوم والتقشف، وفي هذه الفلسفة ما يتفق مع بعض فلاسفة اليونان مثل سقراط الذي كان يشتاق إلى الموت لأنه يوصله إلى معبوده وإلى هذا ذهب أيضا بعض صوفية الإسلام في تحديد العشق بأنه الاشتغال بالحق عن الخلق. ثم يفصّل القول عن نظام الطبقات في المجتمع الهندي وهي ظاهرة كانت دائماً من أبرز ما يتميز به المجتمع الهندي فيقول: إن السيادة والدين اجتمعا على تصنيف الناس في طبقات ومراتب يحفظونها عن التمازج والاختلاط إذ يلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة ولا يرخصون لأحد من تجاوز رتبته ويعاقبون مَن لم يكتف بطبقته.

أما في الفصل المتعلق بالسنن والنواميس والرسل فيقارن البيروني بين الهنود واليونانيين فيذكر أن اليونانية كانت تأخذ نواميسها من حكمائهم فلما تسلط ميانوس على جزائر البحر وكان بعد موسى بمئتي عام وضع لهم نواميس على أنها مأخوذة مني " زوس " (زيوس كبير الآلهة)

وأما الآلهة فقد كانت لهم شريعة صادرة عن الحكماء، وكانت الأشياء فيها مباحة حتى جاء "باسديو" فنسخ تلك الشريعة وحرم عليهم أشياء منها لحم البقر وذلك لتغير طباع الناس

وعجزهم عن تحمل الواجبات ونسخ أيضا بعض قوانين الزواج.

ويفرد البيروني فصلا حول بداية عبادة الأصنام عند عـدد من الشعوب القديمة كالهنود والرومان وأما الهنود فمبـدأ الأصـنام عندهم كان تجلي الرب لأحد ملوكهم القدماء "أنبرشي" وهو بـأربع أيد وأمره الرب بأن يصنع تمثالا على الهيئة التي ظهر بها فمن هذا الوقت تعمل الأصنام ومن أشهرها صنم مولتـان الخشـبي باسـم الشمس وكان محمد بن القاسم الثقفي حينما فتح ملتان وجـد ذلـك الصنم يحجون إليه من كل مكان فرأي الصلاح في تركـه وبنـى بجواره مسجدا عظيما وهذا ما يدل على سعة أفق المسـلمين فـي تعاملهم مع مخالفيهم في العقيدة.

ثم يتحدث البيروني بعد ذلك عن كتـاب الهنـود المقـدس المعروف بإسم " ويد " (فيدا) فيقول إن معناه العلـم بمـا لـيس بمعلوم وهو كلام نسبوه إلى الله تعالى من فم براهم ويتضمن " ويد " الأوامر والنواهي والثواب والعقاب ومعظمه تسـابيح وتراتيـل، ويتناول كتب الهنود في اللغة والشعر وسائر العلوم.

وينتقل إلى الحديث عـن مـوازينهم والمكاييـل عنـدهم وخطوطهم وحسابهم وعاداتهم والمبـاح والمحظـور لـديهم مـن المطاعم والمشارب ويفرد صفحات كثيرة للحديث عن أساطير الهند وملاحمهم وتقاويمهم الفلكية وأعيادهم وقواعد التنجيم وجداوله.

ونلاحظ أن كثيرا مما ذكره البيرونـي فـي كتابـه حـول المجتمع الهندي وعاداته لا يزال قائما حتى اليوم إذ أنهم من أكثـر الشعوب حِفاظا على تقاليدهم المتوارثة ومن ثم أصبحت تقريراته و

تسجيلاته التي تم تأليفها منذ عشرة قرون حضور حي حتى عصرنا الحاضر.

وكتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة يضع البيروني في مصاف الرواد من علماء مقارنة الأديان والكتاب يفتح أبوابا جمة تتصف بالإثارة والجِدة أمام المهتمين بدراسة الأديان و مقارنتها في المضامين التاريخية والأدبية.

لم يعتمد البيرونى في وصف الأشياء على المصادر السابقة، لأنه لم يشأ أن يكون ناقلاً أو مقلدًا، بل لجأ إلى أسلوب المشاهدة والتجربة والمقارنة وإلى الجانب التطبيقي، الذي لم يكن متداولاً في عصره، ومن ثم فإننا نراه يتحدث عن المصادر السابقة عليه بقوله:

"فأشرت إلى أن أكثرها هو مسطور في الكتب، هو منحول وبعضها عن بعض منقول وملقوط مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذّب"

ومن هنا فإن كتاب البيرونى لا يعتبر مظهرًا من مظاهر الانسجام بين الحضارة الإسلامية والهند فحسب، بل يعد مظهرًا من مظاهر التعاون بين الأمم كذلك.(٨) وقد أورد البيرونى في ثنايا "كتاب الهند" ما يقرب من ثلاثة آلاف كلمة سنسكريتية تخللت متن كتابه العربي، وقد سجّلها كما كان ينطقها البراهمة وعلماء الهند في ذلك الوقت (٩) ومما يؤكد نزاهة البيروني، وعدم تعصبه، أنه لم يمجد السلطان محمود أو فتوحاته؛ بل انتقد هذه الأمور وعدّها سببًا لتخريب حضارة الهند، يقول: "فأباد بها خضراءهم.. فبقيت بقاياهم

المتشردة على غاية التنافر والتباعد عن المسلمين، بل كـــان ذلـــك سبب انمحاق علومهم عن الحدود المفتتحة وانجلائها إلى حيـــث لا يصل إليه اليد بعد من كشمير وبانارس وأمثالهما".

خاتمة:

فقد اتضح أن البيروني تفرد على غيره من المؤرّخين فـــي في التوصيف للعديد من الموضوعات ليس في معلوماته فقط، بـــل في طريقة تناوله لتلك الموضوعات وقد تبيّن أن مصادره امتـــازت بتنوع كبير ينسجم مع تنوع مادة الكتابين. فقـــد تركـــزت مصـــادر البيروني على المدونات ومقابلاته الشخصية علاوة على مخزونـــه الفكري والثقافي، عوضا عن اجتهاده وما قدّمه من معلومات حصل عليها من خبرته واطلاعه. ولقد بدا من خلال دراسة البيرونـــي أن هناك صعوبة في فهم مرامي النصوص لأنه كتب للخاصة. لذا فإن مادة كتبه ذات عمق كبير وغزارة في المعنى. والأهم من ذلك كلّـــه أن اسلوبه غلب عليها الطابع العلمي بحيث لايمكن تناول مادة كتبه بصورة مباشرة وبسيطة. كما أن السياق والمفهوم اللّبابي في كتاباته يحتاج الى فرز للمعرفة التاريخية التي نراها تناثرت في مؤلفاتـــه. وإن تأليفه "كتاب الهند" هو أهم وأوسع كتاب وصلنا فـــي وصـــف عقائد الهندوسيين، و شرائعهم وعاداتهم فـــي أنكحـــتهم وأطعمـــتهم وأعيادهم، ونظم حياتهم، وخصائص لغتهم. و من ثم قال بروكلمان عن هذا الكتاب "أهم ما أنتجه علماء الإسلام فـــي ميـــدان معرفـــة الأمم".

هوامش المراجع و المصادر

١- راجع بالتفصيل ترجمته، في البيهقي، ظهير الدين ابو الحسن (ت٥٦٥هـ/١١٦٩م)، تتمة صوان الحكمة، ط،١ (تحقيق وضبط وتعليق رفيق العجم) دار الفكر اللبناني، بيروت،.١٩٩٤ص،٧٥-٧٤ وسيشار له، ظهير الدين البيهقي، تتمة صوان، وانظر تاريخ حكماء الاسلام،(عني بنشره وتحقيقه محمد كرد علي (مطبعة الترقي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق،١٩٤٦ص ٧٢، ٧٤.

٢- ظهيرالدين البيهقي، تتمة صوان،ص،٧٤ و تاريخ الحكماء، ص.٧٠

٣- البيهقي، ابو الفضل محمد بن حسين (ت٤٧٠هـ/١٠٧٧م)، تاريخ البيهقي، ترجمه الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت، ١٩٨٢ص:٧٣٣

٤- السمعاني، الأنساب، ص.٣

٥- محمد فارس، موسوعة علماء العرب والمسلمين، المؤسسة العربية للنشر، ط ١، بيروت ١٩٩٣، ص ١٠٠

٦- البيروني، تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن/ مقدمة المحقق، تحقيق ب. بولجاكوف، معهد المخطوطات العربية، ط ٢، القاهرة ١٩٩٥، ص ٩

٧- كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم – ص ٥١ من المقدمة.

٨- أبو ريحان البيرونى وتحقيقات هند– كورويااكى – ص٥٩.

٩- أبو ريحان بيرونى فاتح علوم وآداب هند – سيد محمد رضا جلال نائيني– ص ٣١٠-٣١١.